الزّانيةّ

بقلم.. زينب الاليسية / السعودية

كأنما أفقت من القبر..

أحسرت عني لحاء الوحدة والذاكرة، وهُممت إلى المغسل كقبر يتخلل أحشاء جثة.

صباح العيد، حاولتُ أن أنام، أهدابي تصفق بلا هوادة، لأشد ما أكرهه العيد!

غلفت المأساة أوداجي الشاحبة، ولم تفلح أنهار الروح بزوالها..

وفلقت الأسئلة الصماء حينها حدبة رأسي بقهر: "متى ستلحق سيرتي "أصبح بالعالم الآخر "؟

وبمَ ينادى أمثالي فيها؟

"غاسل العار"؟

أم "حامي الشرف "؟

أم مجرد "قاتل" لأخته؟

أنا لا أذكر أني حملت اسمًا أو لقبًا قبل ذاك في يومًا ما.

شهادة ميلادي تقسم على أني لم أتعدَّ الثمانين من عمري..

وجثتي تؤكد أني تجاوزت التاريخ بخواء شاهق وبؤس!

هبطتُ ببصري بؤسًا لمرأى أغصاني المتعطشة للحياة، عروقها لُهّب زرقاء، لونها المستفز للمُقل مُطعّم بالوجع!

خائنة هي وكَذَا جسدي وقد بدّت عنهما عبائق الرحيل، وأنا الذي لم يرتوي من ودق الحياة أيَّما قطرة.

حملت جسدي المقدود بألمه من وراء المغسل، لطالما أزعجني رقادي كجثة وقيامي الذبيح!

فأنا لحاء جفت بُرَدتَه فتهشم، مفرغ من أي شيء إلا من كبريائه يحمله كل مساء ويحفر قبره في صمت.

هوى عكازي وقّبل أخشاب الباركيّه الماثلة تحت قدمّي.. أهوى إليها هربًا من استعباده تحت إمرتي أم ضجرًا من قبضتي الرطبة؟!

أهملت رقاده فوق حبيبته اللامعة وبرد قاتل يسبقني إلى غرفتي.

دفعت الباب بفجيعة الخيانة التي أصابتني لأجدها تفتح على تضاريس مجهولة!

ولجت إلى حجرتي الظالمة -عفوًا- المظلمة، حاولت محو ظلماتها بمقابس الأزرار المعلقة لكن عبثًا فالتيار انقطع كما في كل المرات..

تأففتُ آنفًا: آه عليك من جور زمنك الماكر يا طارق! كُنتُ طارقًا، تُطرق القلوب وتبلغ الحناجر لمرأي.

كنتُ طارقا وصلبًا كحديدٍ مصقول.

كنت ضخمً كعملاق.

كنت قويًا، شرهٍ بالطعام والشراب والمضاجعة..

أتعامل مع أفراد أسرتي كما تعامل يداي الحديد الذي يحرقني وأصهره، وتطرقه مطارقي فيطاوعه.

لا أستسيغ الأحاسيس والعواطف إلا فيما يخص ابنتي "رؤى" ولولا محبتي ومطاوعتي العمياء لرغباتها الصغيرة السخيفة لقيل عني أني رجل بلا قلب..

سحبت ساقاي نحو المسارات التي هداني إليها حدسي، فالعقل فيَّ قد فنى ونأى بنفسه عني هو الآخر!

بحثت عن علبة كبريت تنفعني في هذا اليوم العسير فحال عنه الظلام المبعثر على الزوايا..

وأنا أتحسسها اكتشفت أني تعثرت بسريري الحديدي الذي يأويني كل ليلة

لكنني ابتسمت من نزقيّ المفرط، فالظلمة عشيقتي الخالدة، تلازمني كظلي الرمادي لتزرع الخراب في كل فضاءاتي.

هبطت مرقدي لأريح شراييني من ضخ شذرات حياة لأطرافي الشائخة، تزملت باللحاف الرقيع وسرت أهدابي إلى السقف الغامق، ثم إلى الأرض العتيقة، إلى النافذة الصغيرة المغلفة بالإسمنت.

إلى الباب المغترب، ثم آخرًا.. إلى كوب الماء المنتصب على الطاولة المغبَرة!

تكورتُ في فراشي محتضنًا أوجاعي الأزلية، تخلى عني عكازي وتيقنت أنه لم يبق أمام خيبتي غير ذاك الكوب ليمنحني بعض الدفء والأمان.

ومن جوف العتمة الجائرة تسللت إلي صورهم وكلماتهم، يتقاذفها الدم والدمع.

"قاتل.. قاتل... بلا قلب... أنت وحش"!

صرختُ بكل الوجع الذي يلبسني: أصمتوا كلكم!

إني أهلوس، أنا لم أمُت لأراكم!

كنتم كلكم تقفون على خدمتي، تأكلون بعد شبعي إن بقي لكم ما تأكلون!

تشربون مما يفيض من مائي، والويل لكم أن ناديت أحدكم وتلكأ بالإجابة، أو استقرت نظراته متحدية غير خائفة، أو نضح لسانه بما يثير، وكل شيء قد بذلته عليكم يثير بي الهيجان يا حقراء!

أعلم كم كنت قويًا.. مسيطرًا.. بل ومجنونًا!

أعلم أن قوتي شحنة حيوانية في جسد لا تعرف التعب أو الكلل!

وروحي لا تعرف الرأفة أو الشفقة لدرجة أن زوجتي تمنت زواجي بأخرى لتزيح عنها مما تلاقيه على يداي.

وإذا ما أن انفجر جنوني فإني أتحول إلى وحش هائج أصم!

تزيد من إثارته الدماء، ولا يخفف من هيجاني الهروب أو الصراخ أو حتى الاستجداء!

جنوني لم يترك جسدًا من المحيطين بي إلا وترك فيه بصمته الدائمة.

فأخي الراحل عانى من يده اليسرى دهورًا قبل أن تزهق روحه بعدما لوّيتها له وتمتعت بكسرها.

أما ولداي الشقيان، فأحدهما فقد السمع تمامًا من أذنه اليسرى إثر صفعة أهديتها إياه.

أما الآخر فقد خلقتُ به علة دون صفعات، إذ أنه دائم التلعثم والرجفة وتستفحل حاله لدى رؤيتي.

أما زوجتي، فمن بين نساء الأرض جميعًا كانت تتمنى وتبتهل ربها ليهديني وأتي عليها بزوجة أخرى تحمل عنها بعض ثقلي.

عرفت هذا من ابتهاجها لزواجي من أرملة أخي الراحل، كانت تظن أنها سوف تستريح من مصارعة أنفاسي ولهاثي.. ستلهيني الأرملة وتتحمل شيئًا من عذابها معي، هه!

أظـن أن كلتاهمـا الآن تحـتفلان بعيـدهما الأول منـذ اسـتظلتا بظلـي الشيطاني!

أما رؤى، الصغيرة الماكرة، الجميلة العاهرة، فهي ابنتي العزيزة من زوجتي الأولى، جالبة العار كعمتها!

عمتها الزانية "خالدة"، أختي التي أُزهقت روحها بين يدي!

هجرت مضجعي الجامد إلى المرآة، نظرت إلى صفحتها مليًا..

دقق بؤبؤي المستفيض بمياهه الزرقاء أكثر، كأنه يلاحظ لأول مرة التغيير الذي طرأ عليَّ.

فرقة من التجاعيد بدأت ترسم دروبها بهمة وسرعة حول عيناي الجاحظتين، تتقدمهم الشعيرات البيضاء تغزو مفارقي وتحصد سواد شعري، إنها تنبأ عن علاماتها، تعلن عن الربع الأخير من العمر الغابر.

هنا أرسلت صوتي المحمّل بحقدي الذي أنبت بصدري شوكًا ودمًا:

"كلكن العاهرات مباح دمكن، وأولهن أنتِ يا خالدة"!

أذكرها طفلة صغيرة جدًا، بريئة جدًا، وطيبة جدًا، كنت أجلسها كالحمل الوديع فوق جناحيّ، وتذوب حواسها الخمسة في دورانـي بها، فمتى ذابت على أجنحة الغربان؟

كانت مميزة عن كل أطفال العالم، ولكم توغلت ألسنة الحسد في شراييني العارية فعاثت فيها فسادًا كلما نظرت أمي إليها وقالت مازحة -

- "كم هي تفاصيل وجهها مبهمة، غير واضحة، ومع هذا أحس أن لا أحد يقدر على فهمها غيري"

وما فتئتُ أن روّضتُ تلك التفاصيل على الوضوح منذ ترعرعت تحت سلطتي حال موت أمها.

وتمضي الأيام سريعة، تلتهم بعضها البعض، كأنها تتعجل رؤية النهاية.

أذكر أني فتحت باب منزلي الكبير، واستقبلتني نظراتهم المشبعة بالخوف المهول، دون أن أنفرط بها.

تمتمت بقسوة:"ألم تتعلم تلك الغبية قوانين من تستظل به؟"

ثم انحنى صوتي لنبرة أشد "أين أنتِ يا خالدة؟"

أتتني مهرولة بخطوات تعثرت فيها نبضات قلبها وسط صدرها خوفًا ورعبا.

قد شّبت على إحساس الخنوع وبات رفيقها الذي اعتادت عليه منذ تقيدت بذيل ظلي!

ندّت عنها شهقة متوجعة وأنا أسحبها بعنف وفِي ثوانِ دفعتها بقسوة على الأرضيّة الخشنة فتأوهت ألمًا، بينما نزلت إليها بجسدي الكبير وملامح وجهي أقرب لشيطان مجنون.

قلت لها كازًا على أسناني :" أيتها الكاذبة، منذ يومين فقدتِ وظيفتكِ ولَم تخبريني!، أين كنتِ تقضين تلك الأوقات دون علمي؟".

تعثرت الحروف فوق سطح شفتيها المتشققة من الخوف، رأيت تفاصيل وجهها المبهمة كما لم أرها من قبل، سرّها المأسور بين تلك التفاصيل بات يؤرقني!

قضيت عليها بصفعة حازمة وحكمًا بحرمة خروجها عن الباب شبرًا واحدًا، فلم تنبس بنصف آهة حتى!

أجفلت وزحفت خطوة للوراء وتبعثرت الدموع على صفحة وجهها، همست بنبرة استعطاف ورقة فُطرت عليهما: " خرجت الْيَوْمَ لأبحث عن وظيفة جديدة.".

تدخلت على حين غرة ابنتي رؤى، تقول بابتسامة قبيحة :"يا لكِ من فاشلة في الكذب يا عمتي!، رأيتك صباح اليوم تتسكعين مع ابنة جارتنا العانس"!

"رؤى" دومًا تترصدها، تهفو على خطواتها أو أخطائها، لا فرق، وكأنها عدوة لها لا عمة!

ابتلعت خالدة الإهانة وواصلت ما تقول باستجداء يستهلك طاقتها : "لم أكذب عليك أخي، لقد كنت أبحث عن وظيفة جديدة، أقسم لك كنت كذلك، بحثت كثيرًا لكن".

قاطعتُها بنفس الابتسامة والنبرة المهينة :"..لكنكِ لم تكوني بمواصفات جيدة كفاية"!

ابتلعت ريقها وعيناها تتلبدان بالدموع، لأردف وأنا أنظر إليها بتذمر حاقد :"حظي تعس!

لو كنتِ امرأة مليحة كفاية لكنتُ الآن متخففٍ من حملك الثقيل"!

فتساقطت دموعها مدرارًا وهي تهرب متحججة بإنهاك مفاجئ!

ترققت حينها ملامحي واتسعت ابتسامتي لاقتراب مدللتي وهي تبادلني بذات الابتسامة ثم همست بنعومة :" أنها تكذب عليك يا أبي، لديها ما تخفيه عنا.. شعر بذلك"

لم تخطئ بما قالته فقد ظل قلبي يرقص على حبال الشك تجاهها، إلى أن جاء آخر يوم لازلت أذكره كهذه اللحظة..

كان ذلك اليوم قد لّها بها أيضًا، وكان لهوًا قاسيًا.

قاسيًا جدًا على جسدها الضعيف الذي يئن تحت آثار الحمل فتعض على شفتيها تكتم الشكوى.. المهم أنه علم بالأمر وانتهى وقد عاقبها بطريقته التي تمتعه.

غدا وجهها شاحبًا شحوب الأموات وهي تنتقل كشبح باهت في أرجاء الشقة الحقيرة التي باتت قبرها الإجباري فوق الأرض..

رائحة الموت تفوح منها، ميتة هي منذ زمن ولَم تعترف بذلك إلا الآن..

قد استسلمت لنعيم وهمي يدعى بالحب والذي قادها لقبرها هذا، فتعفنت فيه بخطاياها وأذلالها وهوانها على الناس أجمعين، وقبل ذاك كله على نفسها أولًا!

من نافذة الغرفة الصغيرة اخترقت سهام الشمس زجاجها القذر فحدقت عيناها في تلك الذرات الهشة السابحة في الضوء وتمنت الاختفاء.

وإن تمنت.. هل يجوز لها تحقيق تلك الأمنية؟!

رفعت لوجهها المصفر بفعل التعب أنامل جافة تعكس جفاف روحها، تبادرت إليها الأيام التي ألتقت فيها بطلال، الزميل المرح بذات المكتب الذي عملت به سابقًا.

كان يسقيها مالم تطعمه في حياتها، الحب وإدراك قيمة وجودها!

فلم تعلم أن الأكسير الممدود من أميرها الفاتن لم يكن إلا سُمًا قد صنعه أمثاله لأمثالها، فتمثل لها كمستقبل سينتشلها من اضطهاد أخيها طارق وسوء معاملته لها.

شعرت برطوبة بشرتها الجافة فأدركت أنها تبكي دون أن تحس..

همست وبكاؤها يشتد عويلًا:" أنتِ من فعلت هذا بنفسك! استسلمتِ لكلماته الملغمة بإغواء وردي، وغرقتِ في دهاليز أوهامه الخادعة، وأدركتِ متأخرًا جدًا أنه لم يكن إلا مستنقع قذر"

أجفلت بقوة وقرع على الباب يداهم أفكارها البائسة، ولانت عيناها في استسلام مرير..

لا بد أنه أَتَى ليأخذ ما نسيه، قد أتصل بها صباحًا آمرًا بهستيرية أن تسبقه للشقة التي استأجرها ليفرغ فيها نزواته معها كل مرة مذ أوقعها بمستنقعه الآسن.

حدقت لأشعة الشمس مرة أخرى، لم تتخلص من عادتها بالنظر إليها كلما اسُتنزفت وأهلكتها المواجع، وكأن تلك الخيوط الذهبية الباهتة قبس من نور خالقها!

همست بحرقة قلب ينازع وروح لم تعد تريد إلا الخلاص :"أنقذني يا رب، أنا لا أستحق منك نعمة الخلاص لكن، ليس لي غيرك."

قرع جديد أشد خشونة من أوله فتنهدت، وهرعت يداها تزيل قطرات الدموع خلال تحركها لقدرها المكتوب.

فتحت الباب وهي تطرق برأسها بينما تهمس "مرحبًا"..

لم تحصل على رد ولَم يتحرك الظل الجاثم أمامها، رفعت وجهها باستغراب فبهتت وتحجرت ملامحها بينما تحاول التراجع للوراء بخطوات غير ثابتة وهي تهمس "أخي"!

ذلك المساء لم يشبه المساء في شيء..

أصبت بنوبة سعار مفرطة لدى معرفتي بخبر خروج خالدة دون إذني للمرة الثالثة خلال شهر واحد!

فاجأني اتصال رؤى فلا أذكر مما قالته إلا ما أجج النيران في عروقي يومها..

"أبي، ألحق بعمتي فورًا، أتاها اتصال غريب وقالت وهي مغادرة على عجل أنها قد حصلت على مقابلة لوظيفة ما، لم أصدقها وأشعر أنها تفعل شيئًا ليس جيدًا بالمرة"!

استلّت السكين وهرعت بسرعة من مكتبي القريب للمنزل إلى سيارتي، ولمحت خلالها خالدة تعرج لداخل سيارة أجرة بوجه هالك منهك، كأنما كانت على موعد مع الموت!

ترجلت على عجل وأسرعت أقدامها تبتلع الدرجات الموصلة للشقة لتلجها وتقفل عليها بابها، يتبعها شاب ممشوق القوام تتسم ملامحه بالثقة

وأمام المشهد المبتذل انكمشت:"ألهذا الحد كُنت أحمق يا طارق؟"!

حاول عقلي أن يفهم شيئا من هذا المشهد الذي خنقني ووضعني على عتبة النهاية لجميع عوالمي، لكنه لم يفلح!

أعترف أني أكرهها، أمقتها، أعترف أني شتمتها البارحة، لكن لا يجوز لها أن تنتقم مني بهذا الشكل!

أقسمت بيأسي:سأنهل من دمك، وعليكِ ألف لعنةٍ يا خالدة!

انتظرت تفريخهما الأخير، حتى انسل العاشق الممشوق من عش الغرام، فأقبلت أكاد أخلع الباب بقبضتي وباغتها في حضن الموت تنتبز الزوايا خوفا وهربا.

رقصت مُلقها على لحن النصل عند انسلاله من بين تلافيف قميصي الأشيب.

أخيرًا، أنهت رقصتها المذبوحة وابتسمت إلي بحزن البشرية جمعاء ثم همست ودموعها تسابق الغيث انهمارًا:"أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله،.. غفرانك يا رب... اغفر.. ل.. ي.."

وانقطع لسانها عن التردد والنصل الخائن لصاحبه يحفر بصدرها خطوط متعرجة..

مزقتها، مزقت قلبها، ومزقت الستائر الوثيرة، السجاد العتيق، الأرائك المتوسدة بالشقة،.. ومزقتُني!

شعرت بأنفاسها تتهاوى بذل سافر ويختم همَّسها المشهد المريع وهي تهس لعينيّ الدامعتين:" أشكرك.. أخـــ.. يي"..

وطوت عيناها صفحة النهاية وانفرجت شفتاها عن آهة أكاد أجزم أن سمعها ثامن جار!

الساعة تزحف نحو منتصف النهار، وموتها يزحف.. نحو نهايته!

بدأ البرد يحتل أطرافها الجافة، ومنذ الطفولات الباكرة وهي عامرة بالبرد والخوف..

هي من اختارت المهانة عندما رخصت نفسها ومنحت جسدها بغباء لرجل لا يستحق، فبات لزامًا عليها أن تسير معه في الطريق الذي يحدده حتى وصلت للنهايات السائدة لأمثالها!

فخرجت ثائرًا أعمى، لم أجد غير نفسي تركض وراء ابنة الجيران محاولًا قتلها، صارخًا كأنما رجمتني الأبالسة:" كُلُّكُنَّ عاهرات!" حتى أنقض علي لفيف من رجال الشرطة فأوقفتني عنها.

أخيرًا تحركت ضمائر الشهود حين اتصلت بالشرطة، وانهالت اعترافاتهم حين وقعت في قبضتهم، متفاخرين بكونهم سمعوا صوت

الطعنة الأولى، والثانية، وصوت صراخ جارتهم، إلا أنهم آثروا الصمت انطلاقًا من عاداتنا وقيمنا التي تقدّس الخصوصية وحرية الأفراد الشخصية، وخوفًا من أن يُخدش حيائي أثناء ارتكابي للجريمة.

وتأتي المهالك تِباعًا..

فعلمت خلال قضائي الحكم بالسجن لمدة خمس سنوات - المدة المحددة لقضايا الشرف - أن زوجتيّ الاثنتين قد طلبتا الطلاق، تلتهما الفجيعة الأخيرة بابنتي رؤى!

فتكت فعلتها بقلبي المثخن بالجراح، نبأ هربها مع شاب ما خارج الوطن قضى علي بجلطة دماغية نتج عنها شلل بجزئي الأيسر، تعفنت خلالها فترة لا بأس بها بالمشفى حتى عاد شعوري بما شُل مني.

ورميت بعدها في دار للعجزة بعد طلاقي لزوجتيّ ورحيلهما بأبنائي بعيدًا جدًا عن قاتل أخته "المجنون" المدعو ب "طارق".